

الدول المستقلة في مصر والشام

بعد ضعف الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني نتيجة تدخل الأتراك في شؤون الخلافة العباسية السياسية والعسكرية والاقتصادية، أدى إلى نشوء دويلات وإمارات مستقلة عن سلطة الخلافة العباسية وتابعة لها اسمياً فقط، وكانت هذه الإمارات في شرق العالم الإسلامي وغربه، وسنتناول بداية هذه الدويلات في كل من مصر وبلاد الشام وعلى الشكل الآتي:

الدولة الطولونية في مصر والشام :
(٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م)

أولى الخلفاء العباسيون مصر والشام اهتماماً كبيراً نظراً إلى كونهما حلقة وصل بين مغرب الدولة ومشرقها. فتولى حكمها إدارياً نائب الخليفة وولي عهده باعتبارهما وحدة إدارية واحدة. على أن مقر إقامته كان إما بدمشق في الشام، أو بالعسكر في مصر.

وفي أواخر العصر العباسي الأول، وبالتحديد منذ خلافة المأمون، حقق نواب الخليفة مكتسبات كثيرة منها:
- حق الإقامة في بغداد بصفة مستمرة.
- حق الخطبة لهم على المنابر.
- حق كتابة أسمائهم على السكة - النقود . .

وبعد أن سيطر الأتراك على النفوذ في العصر العباسي الثاني، أصبح الولاة منهم. لكن عز عليهم أن يبتعدوا عن بغداد أو سامراء، لذلك أنابوا عنهم رجالاً يصرفون أمورهم باسمهم. الأمر الذي جعل نواب الولاة - مع الأيام - ينتهزون فرصة انشغال الولاة بما كان يجري داخل عاصمة الخلافة، من منافسات ومنازعات على السلطة - مثلاً: أمرة الأمراء - ، فضلاً عن ضعف الخلفاء أنفسهم، وعدم قدرتهم على فرض الولاء التام، فينزعون إلى الاستقلال عن الخلافة العباسية.

وولي مصر منذ عهد المعتصم بالله أحد أمراء الأتراك المدعو^(٧) «بايكباك»

(٧) كانت لبابك من ولاية مصر الصلاة والحاضرة في حين كان على الإسكندرية إسحق بن دينار وعلى =

على أن بايكباك - شأنه شأن سائر ولاية ذلك العصر - أناب عنه سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ابن زوجته أحمد بن طولون^(٨)، إلا أنه قتل بعد مدة قصيرة، وحل محله في ولاية مصر أمير تركي اسمه «باركياروق» كانت تربطه بأحمد بن طولون روابط مودة أسرع إلى الزواج من ابنة الوالي الجديد تمثيلاً للروابط وضمناً لبقائه في الولاية. فكان له ما أراد، إذ أقره «باركياروق» على ولاية مصر بكاملها قائلاً في الكتاب^(٩): تسلم من نفسك إلى نفسك «فانسحب من مصر صاحب خراجها أحمد بن المدبر إلى الشام سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠ م ليتقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن.

فأحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية تركي الأصل - والده أحد مماليك المأمون - نشأ في بغداد نشأة عسكرية، ونال قسطاً وافراً من التربية الإسلامية وحصل محصلة فقهية غنية في بغداد وطرسوس كان لها الأثر الكبير في أخلاقه وسياسته بابتعاده عن العبث والظلم والجشع في جمع الأموال. واتخذ لنفسه سياسة ذكية استهدفت الإستقلال بمصر كلها ليجعل منها دولة يحكمها هو وأولاده من بعده، على أن تربطها بالخلافة بروابط شكلية منها:

- الدعاء للخليفة في خطبة الجمعة.

- نقش اسم الخليفة على السكة - النقود.

- إرسال جزء من الخراج - ضريبة على الأراضي - إلى الخليفة.

وأول ما يفكر فيه مؤسس الدولة إيجاد حاضرة لدولته. أما باتخاذ مدينة قديمة أو بنائه عاصمة جديدة. كان أن أنشأ أحمد بن طولون مدينة القطائع^(١٠) سنة ٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م فوق جبل «يشكر» بين مدينة القسطنطينية وتلال جبل المقطم عند مكان قلعة مصر اليوم لتكون عاصمة له. وبنى فيها قصرًا فخماً ترك أمامه

= برقة أحمد بن عيسى الصعيدي، وعلى القضاء بكار بن قتيبة، وعلى البريد شقير الخادم، وعلى خراج مصر بكاملها أحمد بن المدبر.

(٨) تزوجت أمه بعد وفاة والده من الأمير «كباك».

(٩) الكامل في التاريخ ٥ / ٣٣٩. النجوم الزاهرة ج- ٣ / ٥ - ٧.

(١٠) النجوم الزاهرة ٣ / ١٤ - ١٧. والخطط القرظية. ١ / ٣١٥.

ميداناً واسعاً يستعرض فيه الجيوش . وأحاط بالقصر ثكنات جنوده وحاشيته،
جاعلاً لكل فئة من جنوده قطعة - وحدة - خاصة بها . ف جاء اسم العاصمة جامعاً لها
«القطائع» . وابتنى بها، إلى جانب قصره، مسجده الذي انتهى منه سنة
٢٦٥ هـ / ٨٧٩ م، وهو لا يزال إلى الآن على حالته الأصلية باستثناء المئذنة التي
أعيد بناؤها سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م . كما بنى بيمارستاناً لمعالجة المرضى على
اختلاف حالاتهم، والحق بالبيمارستان صيدلية لإعطاء الأدوية اللازمة مجاناً .

ولم يلبث «باركيا روق» هو الآخر أن توفي سنة ٢٥٨ هـ / ٨٧٢ م . فأصبح
أحمد بن طولون يحكم مصر من قبل الخلافة مباشرة، بيده إدارتها وماليتها
وقضاؤها وجيشها عندها أظهر أحمد بن طولون اهتمامه الكبير في القضاء على
الفتن الداخلية وبنوع خاص تلك التي أشعل نارها الخوارج والعلويون . كما أحكم
رقابته على الموظفين وخاصة موظفي ديوان الخراج . فحصل على زيادة في الدخل
دون اللجوء إلى إرهاب الأهالي، كما كان يفعل أحمد بن المدبر في السابق . ثم
استغل هذا الدخل الكبير في العناية بالمشاريع العمرانية، فربط البلاد بشبكة من
الجسور، وحفر الترغ ووطد الأمن، ورعى التجارة .

وكل هذه الأمور لم يقو على تحقيقها لو لم يبادر إلى إنشاء جيش كبير عدداً
وعدة لتوطيد مركزه من جهة والدفاع عن البلاد ضد أي خطر خارجي من جهة
ثانية، فضلاً عن توطيد الأمن داخل البلاد من جهة ثالثة . لذا أكثر أحمد بن طولون
من شراء الرقيق حتى وصل عددهم في عهده إلى أربعة وعشرين ألف غلام تركي
وأربعين ألف أسود، وسبعة آلاف مرتزق .

لكن سيطرة طلحة الموفق على أخيه الخليفة المعتمد على الله في حاضرة
الخلافة أقلق بال أحمد بن طولون ولا سيما عندما طلب الموفق منه مساعدة مالية
ولم يقدمها له . فأقدم الأخير على عزله عن مصر وتولي «ماجور التركي» مكانه .
وواجه أحمد بن طولون الموقف بشجاعة إذ أقدم على إظهار طاعته للخلافة بإرساله
رسالة إلى الخليفة المعتمد سنة ٢٦٨ هـ / ٨٨٢ م يحرضه فيها على المجيء إلى
مصر، ويعدده بالحماية، ويحرضه على جشع واستبداد أخيه الموفق، في الوقت
الذي امتدت دولته من العراق شرقاً إلى برقة غرباً ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى

النوبة جنوباً. لكن الموفق علم بمؤامرة ابن طولون في محاولته نقل الخليفة والخلافة إلى مصر وأفلحها، إلا أنه لم يتمكن من محاربتة لانشغاله في القضاء على ثورة الزنج، مكتفياً بتدبير المكائد والمؤامرات ضده، الأمر الذي جعل أحمد بن طولون يتبع السياسة نفسها تجاه الموفق، ويصدر أوامره بلعن الموفق على منابر مصر والشام، وحسّن علاقته بالدولة الأموية في الأندلس وسهّل أمور رعاياها في بلاده.

ثم توفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م قبل إنهاء الخلاف بينه وبين الموفق. فأسرع الأخير إلى الإغارة على الشام للقضاء على الدولة الطولونية لاعتقاده أن خمارويه الذي خلف أباه في حكم الطولونيين لم يكن رجل حرب لميله إلى حياة السلم والرخاء. فاستولى الموفق العباسي على الشام حتى الحدود المصرية. لكن خمارويه أفشل خطته وردّه على أعقابه حينما قام على رأس قوة كبيرة من جيشه يساعده في القيادة القائد «سعد الأيسر» واستعاداً سيطرة الطولونيين على البلاد الشامية حتى الموصل والجزيرة الفراتية. وانتزع من الخلافة العباسية اعترافاً له بحكم مصر - هو وأولاده - لمدة ثلاثين سنة عند عقد معاهدة صلح سنة ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م^(١١). بينه وبين الخليفة العباسي المعتمد وولي عهده الموفق على أن يكف خمارويه عن لعن الموفق على منابر مصر والشام والدعاء له مع الخليفة المعتمد على الله العباسي.

وارتاح خمارويه من المضايقات بموت الموفق العباسي سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م. وموت أخيه الخليفة المعتمد على الله سنة ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م. فدعم سلطانه في مصر والشام، وشدّ روابط علاقاته بالخلافة العباسية ترسيخاً لسلطانه عندما تزوج الخليفة العباسي المعتضد بالله من ابنته أسماء^(١٢) - الملقبة قطر الندى - سنة ٢٨١ هـ / ٨٩٤ م بعدما بنى خمارويه القصور والإستراحات^(١٣)

(١١) النجوم الزاهرة ٣ / ٥٠ - ٥١.

(١٢) النجوم الزاهرة ٣ / ٥٢ - ٥٣.

(١٣) النجوم الزاهرة ٣ / ٦١ - ٦٢.

على جانبي الطريق إلى بغداد كي تتمتع قطر الندى أثناء سيرها إلى بغداد بكل وسائل الراحة، فتشعر كأنها لم تفارق قصر أبيها.

انصرف خمارويه، بعد ذلك، إلى الإهتمام بالشؤون العمرانية. فحوّل الميدان الذي خصصه والده لعرض الجند إلى بستان تأنق في تنسيقه وغرسه بمختلف أنواع الأشجار والأزهار ونافورات المياه. كما خصص قسماً منه لإقامة حديقة للحيوانات والطيور المختلفة. وأخيراً ابتنى له وسط هذا البستان قصرآ فخمآ سماه «دار الذهب» لطلاء جدرانها بالذهب والنقوش والرسوم المذهبة^(١٤).

وبموت خمارويه سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م اضطربت أحوال الطولونيين عندما خلفه ابنه «أبو العساكر جيش» الذي اتبع سياسة غاشمة قادت قواد جيشه إلى الخروج عليه، فخلعوه وسجنوه وولوا أخيه الأصغر «هرون» مكانه. وهكذا صار أمراء البيت الطولوني العوبة في أيدي الجند.

وفي سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م ظهر القرامطة بالشام فأرسل الطولونيون جيشآ لطردهم منها، لكن هذا الجيش مني بالهزيمة مما أضعف من هيئة الدولة الطولونية. ولما تأكدت الخلافة العباسية من ضعف الطولونيين وانحلال أمرهم جددت رغبتها في استعادة مصر من أيديهم قبل أن تقع في أيدي القرامطة أو الفاطميين. فأرسلت سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م جيشآ بقيادة محمد بن سليمان الكاتب. كما طلبت من قائد الأسطول في الثغور الشامية بالتوجه إلى مصر ومساعدة قائدها الكاتب، لاستعادة مصر إلى سيطرة العباسيين المباشرة.

لم يقو الأسطول الطولوني على الصمود أمام الأسطول العباسي، وكذلك الجيش البري أمام زحف جيش محمد بن سليمان الكاتب الذي تمكن من اختراق صفوف الطولونيين والدخول إلى مدينة القطائع سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م وتدميرها تدميراً شبه كامل^(١٥). وبذلك زالت الدولة الطولونية بعد أن تمتعت بالإستقلال الذاتي مدة أربعين سنة تقريباً، وعادت مصر إلى حكم العباسيين.

(١٤) النجوم الزاهرة ٤ / ٥٢ - ٥٧.

(١٥) الكامل في التاريخ ٦ / ١٠٩ - ١١٠ والنجوم الزاهرة ٣ / ١٣٥ - ١٤٠.